المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء السادس من المجلد الرابع والثمانين

١ يونيو سنة ١٩٣٤ — ١٧ صفر سنة ١٣٥٣

أيام الخليقة

في بدء الكون كان فضاء كرويٌّ اصغر نطاقاً من فضاء اليوم . وكانت المادة في هذا الفضاء منتشرة انتشاراً متسقاً ، بمعدّل بروتون واحد ، والكترون واحد ، في كل لترمنهُ . وقد يبدو لك أيها القارىء ان تسأل ، لماذا وصفنا الفضاء بالكروي . ونعتناه بالصغر اذا قيس بفضاء اليوم . ولماذا وزعنا المادة فيهِ توزيعاً متساوياً . والردُّ على جميع هذه الاسئلة عند علماء العصر . اما أنَّ الكون كرويٌّ ، فلأنَّ الحقائق المشاهدة والمعادلات الرياضية اثبتت لهم ان هندسة الكون تعلل افضل تعليل اذا هم افترضوا ان الكون محدودبٌ في شكل كرةٍ . ولكن لماذا قلنا انهُ كان اصغر مما هو الآن ؟ لأن الدلائل تدلُّ على ان الكون في مرحلة من مراحلهِ بدأ يتسع وما يزال آخذاً في الاتساع . ولماذا حكمنا بأن المادة فيهِ كانت موزَّعة توزيعاً متساوياً ؟ ليس لهذا سند علميٌّ . بل هو في الغالب يستند الى سند من الفلسفة وحسّ الجمال . فالعقل الانسانيّ يفضل ان يتصوَّر الاشياء على ابسط ما يمكن ان تكون . فاذا افترض ان المادة في ناحية من الفضاء البدائي ، كانت اكثف منها في ناحية اخرى ، اضطرَّ العقل ان يرجع بهذه الحالة الى حالة ابسط منها سبقتها ، لما كانت المادة موزعة توزيعاً متساوياً في انحاء الكون . ولذلك نفترض التوزيع المتساوي للمادة : قبل ان اختلف التوزيع ، واصبحت المادة في نواحٍ اكثف منها في نواحٍ اخرى . ثم ان الاستاذ ادنغتن قد قال ان لا فرق اساسي بين العدَم والاتساق الكوني العام في جميع الصفات . فالخليقة الكونية اذن بدأت يوم سرى التنوُّع الى هذا الاتساق او الى هذا العدم

فاذا حدث ؟

لا يعلم احدٌ ما حدث او كيف حدث او لماذا حدث ؟ ولكن ذلك التشابه الكوني الشامل ،

الجزء السادس من المجلد الرابع والثمانين

صفحة

٦٥٧ أيام الخليقة
٦٦٠ في ربيع اليأس : لامين الريحاني
٦٦٦ الري في مصر : لحسين بك سري وكيل وزارة الاشغال
٦٧٨ مصطلحات علم النفس : لمحمد مظهر سعيد
٦٨١ بماذا تتفوق السلالات
٦٨٦ البحث عن الثروة المعدنية : للدكتور حسن بك صادق
٦٩٣ عتاب واستصراخ (قصيدة) لخليل مطران
٦٩٤ الكريم والفتى والسيد : للدكتور امين باشا المعلوف
٧٠١ توريث الصفات المكتسبة : للدكتور شريف عسيران
٧٠٥ هل العرب بربر : لمحمد سعيد الزاهري
٧١٠ هل الانسان آلة
٧١٦ فاجنر واوبرة لوهنجرين : لحليم متري
٧٢١ السيكلوجية الحديثة . ليعقوب فام
٧٢٥ زهد الخلفاء الراشدين
٧٢٦ العناصر المشعة وتركيب الذرة : لمحمد عاطف البرقوقي
٧٣١ سير الزمان : اسبانيا ومشكلاتها . الوطنية في الشرق الادنى : للدكتور عبد الرحمن شهبندر . سياسة بريطانيا الخارجية
٧٤٥ حديقة المقتطف : عيد الروّاد : لالفرد نويز . ترجمة شيطان : رأي الدكتور طه حسين . الشيطان امام الله : للاستاذ العقاد . مختارات من بيرون : لماذا تحبني . لمسز براوننغ . قبرة شلي : لتوماس هاردي
٧٥٣ مملكة المرأة : المرأة الفرنسية . الزوجة ام الولد . الآكنة او حب الصبا . عقل الطفل : لاحمد عطية الله . الامراض النفسية : للدكتور شكري جرجس

٧٧٦ باب المراسلة والمناظرة ● المرض عند عرب الجاهلية : لبشر فارس
٨٦٩ مكتبة المقتطف ● الملاح التائه . شهرزاد . استشارات الطبيب الهارس . هوامش الصحف المجوز . لندن . رسائل النقد . ليالي باريس . تاجر البندقية . القاهرة . اركان التعريس
٧٨٥ باب الاخبار العلمية ● وفيه ٨ نبذ

هل البربر عرب ؟

وهل لغتهم لغة ضاد اخرى ؟

لمحمد سعيد الزاهري*

قال الشيخ ابو القاسم : زارني ذات يوم مستشرق فرنسي كان ضابطاً في الجيش ثم احيل على المعاش ، ولم يكد يستوي جالساً حتى قال : لقد أتيتك اليوم مستفهماً سائلاً . فقلت : حبًّا وكرامة ، ولكني ارجو من فضلك ان لا تسألني عما ليس لي بهِ علم . قال : سأسألك عن مسألة من مسائل التاريخ . قال فقلت : ومن قال لك انني من المؤرخين ؟ . قال : انا سائلك عما تعلم ، وما اريد ان اشقّ عليك . قلت : سلْ . قال : ان المؤرخين العرب الذين بحثوا عن اصل البربر قد ذكروا كل مذهب ، ونقلوا كل قول في هذا الموضوع ، ثم عطفوا على ذلك كله بالنقد والتمحيص فنفوا ما نفوا وأثبتوا ما أثبتوا . ولكن مذهباً واحداً قد أهملوه ، فما تكلموا عنهُ ولا اشاروا اليهِ ، وهو مذهب الذين يرونَ ان البربر هم من اصل « لاتيني » . فهل تعلم لماذا اهملوهُ ؟ وهل اهملوهُ متواطئين ؟ قلت : لعلّ ذلك لانهُ لا يزال حديث العهد ، وليس المؤرخون العرب هم الذين اهملوهُ وحدهم فقد اهملهُ من قبلهم المؤرخون من اليونان بل والمؤرخون من الرومان . قال : نعم ، هو مذهب — كما قلتَ — لا يزال حديث العهد ، لا يعدُّ من العمر الا بضع سنوات . واذا كان هذا هو عذر المؤرخين القدماء من اليونان والرومان والعرب ، فما بال هؤلاء المؤرخين من العرب المعاصرين ؟ . قلتُ : هذا الرأي اقل ما يقال فيهِ انهُ ما زال رأياً مفروضاً لم يقم عليهِ ادنى دليل يؤبهُ لهُ من العلم والتاريخ . فكل ما فعل اصحاب هذا الرأي هو انهم عمدوا الى النقوش والصور التي لا يزال بعض البربر الى الآن يضعونها على الاواني التي يتخذونها من الطين وهي صور ونقوش مصرية لايشك في مصريتها احدٌ من اهل العلم — فقالوا عنها انها تشبه من بعض الوجوه نقوشاً وصوراً وجدت في ايطاليا . واذاً فهي « لاتينية » لا « مصرية » واذاً فهي دليل على ان البربر هم من اصل « لاتيني »

ويُمعنون في اثبات هذه الدعوى ، فيزعمون ان البربر حينما كانوا « لاتيناً » وكانوا نصارى نبغ منهم رجال في السياسة والادب والدين مثل سانت اوغست البربري ، وانهم بعد ما صاروا عرباً مسلمين انحطوا وتأخروا . ثم يقولون انهُ من الخير للبربر أن يعودوا « لاتيناً ونصارى ، ومن الخير لهم ان لايبقوا عرباً ولا مسلمين ... وكذلك بمثل هذا المنطق يحثون البربر على ان يقطعوا كلّ ما لهم بالعرب من صلة القربى ، ويطلبون اليهم ان يخلعوا « جنسيتهم » كما يخلع الناس الملابس

* من مراجع هذا البحث : تاريخ الجزائر في القديم والحديث للاستاذ مبارك الميلي . الاستقصاء في اخبار المغرب الاقصى للناصري السلاوي . تاريخ آداب العرب للاستاذ مصطفى صادق الرافعي . ديوان العبر لابن خلدون

والثياب ! وهذا كلام (كما ترى) هو ترويج لاهواء السياسة ، ودعاية ضد الاسلام ، وليس مذهباً من مذاهب التاريخ . فمن الحقّ الواجب على كلّ مؤرخ يتوخى الحقيقة والانصاف ان يهمل مثل هذا الكلام، وان لا يورّط نفسه ، ولا قرّاءه في خصومة سياسية او في جدل ديني . فقال الضابط : انهم جاؤوا بدليل آخر على هذه الدعوى ، وهو كلمات والفاظ بربرية وجدوا لها في « اللاتينية » ما يشابهها في اللفظ والمعنى . قال الشيخ فقلت : لقد سلك رِنْ Rinn المؤرخ الفرنسي نفس هذه الفلسفة اللفظية واعتمدها وحدها في معرفة اصول البربر ، فجعلهم اوزاعاً بين الامم والشعوب ، وانتهى الى انّ اكثرهم هنود وآريون ، حتى زعم ان عرب بني هلال الذين جاؤوا هذه البلاد هم ايضاً « طورانيون وآريون » ! ! فقال الضابط ان هذه المشابهات اللفظية بين لغةٍ ولغةٍ لا يمكن ان توجد عفواً من غير ان تدلّ على شيء . فكلمة « آرّوس » التي تعني في « البربرية » جبلاً معيّناً قريبة من كلمة « الروس » التي هي اسم روسيا ، وهذا التقارب بين اللفظتين يمكن ان يدلّ على ان بين البلدين نوعاً ما من التقارب المعنوي . قلت : الكلمة البربرية هي « آوْراس » وليست « آرّوس » ، ومع ذلك فانّ بين « آوْراس » و« روسيا » صلة اخرى . قال : وما هي ؟ قلتُ ان العشائر البربرية التي تسكن هذا الجبل هي عشائر زراعية تعيش من زراعة الذرة . ومن العجيب ان مزارعها واراضيها لا تزال مشاعة بين رجالها وابنائها يقسمونها بين من يحملون المساحي ، و« يتبعون المحاريث » وهم يتّبعون في ذلك نظاماً قديماً توارثوه خلفاً عن سلف يشبه ان يكون نظاماً « شيوعيّاً » لانهُ لا يعترف بحق التملك لاحدٍ كائناً من كان . ومع ان هذا « الوضع » يرجع الى عهد بعيد جدّاً ، ومع انهُ آخذ في الزوال ، فانهُ لا يبعد ان يكون مقتبساً من الاوضاع الشيوعية الحاضرة التي تقوم اليوم في بلاد السوفييت ! ثم هو لا يبعد ايضاً ان يكون دليلاً على ان البربر هم من « الروس » وليسوا من « اللاتين » !! فضحك الضابط ، وقال : دعنا من الهزل ، غير انهُ دهش لهذا الاتفاق الغريب ! قال الشيخ : ومضيت احدثهُ ، واقول : الرُّمان هم اوّل من اطلق كلمة «البربر» على هذا الجيل ، يذمونهم بهذا الاسم ، ويعنون بهِ انهم همج متوحشون ، وما كانوا ليذموهم بهذا ، لو انهم كانوا يمتون اليهم بقرابة او نسب . فقال : والعرب ايضاً يذمونهم بهذا الاسم الذميم . قلت : كان ذلك بعد ما اشتهروا به وصار لهم علماً يعرفون بهِ بين الشعوب ، على ان عامة هؤلاء العرب الذين لم يتأثروا بهذا الاسم الروماني لا يسمونهم « البربر » بل يسمونهم « الشّلْح » يمدحونهم بذلك ، ويعنون انهم اهل نجدة وشجاعة ، وانهم اولو قوة ، واولو بأس شديد . وما كانوا ليمدحوهم بمثل هذا المدح لو لم يكونوا لهم ذوي رحم واولي قربى . قال : أفتعتقد انّ البربر عرب ؟ قلتُ : يكاد يجمع المؤرخون على ان البربر يجمعهم جِذْمان عظيمان : البُتر والبرانس ، ويكادون يجمعون على ان البتر من ابناء برّ بن قيس بن عيلان بن مضر ، وانّ قبيلتي كتامة وصنهاجة (من قبائل البرانس) هما من عرب اليمن تركهما افريقش (احد تبابعة اليمن) هنا في ليبيا هذه التي سميت

باسمه « افريقية » فيما بعد . وذلك حينما رجع من غزوها . وروى ابن عبد البر عن بعض النسابة من البربر ان البتر والبرانس هما جميعاً لاب واحد هو النعمان بن حمير بن سبإ . ويرى المسعودي وغيره انهم اوزاع من اليمن وغسان ولخم وجذام وغيرها من قبائل العرب . وقيل هم من العماليق . وقيل من العبر والفينيقيين. وقيل من المصريين الاّ ان ابن خلدون يرى ان البربر كلهم من ولد مازيغ ابن كنعان بن حام بن نوح ، ولا يستثني الاّ قبيلتي كتامة وصنهاجة الحميريتين . على ان ابن خلدون ليس له دليل على دعواه هذه الاّ ما حكاه من ان البربر لا يزالون يتسمّون « الامازيغ » . وهذا لا يكفي في اثبات هذه الدعوى ، فقد تكون فئة « مازيغية » اندمجت في البربر فغلب عليهم اسمها . وقد انقرض اليوم هذا الاسم بالمرة . الاّ ان قبيلة بربرية صغيرة لا تزال الى الآن تسمي لغتها « تمازيغت » اي المازيغية » وليس من الحق ان نترك ما يراه جمهور المؤرخين من عروبة البربر ، وما يقوله نسّابة البربر انفسهم عن اصلهم العربي ؛ لكي نعتمد هذا القول الذي لا نجد عليه دليلا ، وان رآه ابن خلدون . وها انت ترى ان كثيراً من المؤرخين يرون ان البربر عرب ، وانهم يتزلون من العروبة في صميمها ولست انا وحدي ارى هذا . قال الشيخ : فقال لي الضابط : الآن انحل المشكل . فقلت : وأي مشكل ؟ قال الذي حار فيه اكثر الفرنجة الغربيين الذي كتبوا في تاريخ البربر . قلت : وما الذي حاروا فيه ؟ قال : امتزاج العرب والبربر امتزاجاً شديداً ، حتى صاروا في مدة قليلة امة واحدة متجانسة الاخلاق والعادات، وهذا امر عجب له كتّاب الفرنجة اشد العجب ، وحاروا في تعليله ومعرفة اسبابه ، وقالوا انه لم يوجد له مثيل في التاريخ. وها انت قد حللت المشكل ، وقلت ان العرب والبربر هما من عنصر واحد يجري في عروقهما دم واحد . قال الشيخ فقلت : نعم ، والعرب حينما توغلوا في هذه البلاد يفتحونها لم يضطر احد منهم ان يتخذ لنفسه ترجماناً بينه وبين البربر وهذا معناه ان اللغة البربرية لم تكن يومئذ تزيد على انها لهجة عربية محرّفة يفهمها العربي دون مشقة او عناء وكان يومئذ اكثر اسماء الاعلام عند البربر عربيًّا . وهذا « طارق بن زياد » القائد المشهور ، وفاتح الاندلس قد قال عنهُ التاريخ انهُ بربري ، وانهُ هو صاحب الخطبة المشهورة ، ولئن سمي « طارق » باسم عربي في اوائل الفتح الاسلامي ، فقد سمي ابوهُ قبل ذلك « زياداً » ! وأنا لا اشك في نسب طارق ، ولا في نسبة الخطبة اليه . ولكن هذه الخطبة التي هي آية خالدة من آيات البيان العربي ، هي ايضاً تمثل « النفسية » العربية في اكرم صورها وأسمى معانيها . ومعنى ذلك ان « طارقاً » عربي بطبعه ومزاجه ، وعربية تلك النفس التي بين جنبيه ، وعرب قومه : هؤلاء الذين يسمونهم « البربر » او « الامازيغ »

على ان كل ما قيل في اصل البربر انما ينطبق على البربر قبل الاسلام ، أما هؤلاء البربر المسلمون فهم اصرح في العروبة من بربر الجاهلية الاولى ، وهذه ناحية من نسب البربر غفل عنها المؤرخون فما عنوا بها ، ولا بحثوها . وأنا اريد ان اعرض لها في هذا المقال . فقد ذكر بعض المؤرخين

الفرنجة ان البربر في منتصف القرن السادس للميلاد قد خسروا خمسة ملايين من الانفس في حروبهم مع الروم البيزانطيين وذكر المؤرخون العرب ان البربر خسروا في حروبهم مع العرب — ايام الفتح الاسلامي — خلقاً كثيراً . واذا انت اضفت الى ذلك ما خسروه من قبل ومن بعد في الفتن والثورات ايقنت ان اكثرهم قد تلاشى . ولم يبقَ منهم الآ فلول وبقايا قد اعتصموا بقنن الجبال ، ولاذوا بالصحاري . ثم حدثنا التاريخ ان موجات عظيمة من العرب قد غمرت بلاد البربر هذه في اوقات مختلفة . وقد احصيت موجة واحدة من هذه الموجات العربية فاذا هي تربي على مليون نسمة ؛ وهي موجة بني هلال وحلفائهم الذين نقلهم الفاطميون في القرن الخامس الهجري من صعيد مصر ، وأرسلوهم نقمة على دولة الصنهاجيين الذين كانوا يومئذ ينصرون مذهب اهل السنَّة في هذه البلاد ، ويضطهدون مذهب الشيعة فيها . وكانت المذاهب الدينية الاسلامية يومئذٍ بمنزلة الاحزاب السياسية اليوم ؛ يصطنعها اولو الامر لتمكين نفوذهم وتأييد مُلكهم ويتخذها المتطلعون الى العروش والتيجان وسائل ومطايا الى انتزاع الحكم والسلطان

وكان النزاع بين هذه المذاهب قاسياً عنيفاً في منتهى القسوة والعنف لا يتورّع فيه المتنازعون عن الاغتيال وسفك الدماء . وكان لكل مذهب دعاة وزعماء قد انبثّوا بين قبائل البربر ينشرون دعوتهُ ، ويستعملون كل وسيلة من وسائل الاغراء والارهاب ليحملوا الناس على ان يعتنقوه طوعاً وكرهاً . وكان العرب من هؤلاءِ الدعاة والزعماء « يتبربرون » استمالةً للبربر ، واخفاءً لانفسهم ولغاياتهم عن « الخلافة » القائمة يومئذٍ ، وتضليلاً لعيونها وارصادها وكانوا يكثرون التزوّج من النساء البربريات ، استكثاراً للحماة والاخوال والانصار . وقد اصبح ابناؤهم بعد ذلك « بربراً » أقحاحاً . وهؤلاءِ اهالي وادي مزاب في جنوب الجزائر يتكلمون اليوم اللهجة البربرية كلغة منزلية ، ولكنك اذا اطلعت على انسابهم واصولهم وجدتهم كلهم من العرب الذين « تبربروا » لسبب من مثل ما اقول . ويحدثنا التاريخ ان الادارسة الطالبيين قد فرّوا الى البربر واندسّوا بينهم هم ومن كانوا حولهم من الاشياع والاتباع والمريدين ، ثم صاروا بالفعل « بربراً » ، وذلك فراراً بانفسهم من سيف هادم دولتهم موسى بن ابي عافية ومن سيوف رجاله الذين امعنوا فيهم تشريداً وقتلاً . وكذلك ما دالت دولة الا و« تبربر » اكثر اشياعها وانصارها ، وكلما قامت دولة الا واندسّ خصومها بين البربر ، واختفوا من الميدان . و« عملية التبربر » هذه هي عملية بسيطة جدًّا فما هي الا ان يقيم العربي بين البربر مدة من الزمن حتى يصبح منهم . وقد شاهدنا عرباً خلّصاً افراداً وجماعات قد اضطرتهم مصالحهم الحيوية او الحروب الاهلية الى الاقامة بين البربر فلم يكد يمضي عليهم زمن قليل حتى « تبربروا » عن بكرة ابيهم واخرى تدلُّ على عروبة البربر ، وهي انهم يحبون العروبة ويميلون اليها كل الميل . وقد قرأنا تاريخ البربر ، ودرسنا حياتهم الحاضرة فما وجدنا في خاصتهم ولا في عامتهم ادنى اثر لهذه « الشعوبية » التي لم تكد تنجو من شرّها امة من امم الاسلام الاخرى

ولقد اسس البربر دولة كبرى في هذه البلاد ، وأسسوا في بعض انحائها امارات صغرى ، ولكن لم تقم ولا واحدة منها على العصبية البربرية ، بل قامت كلها على دعوات دينية محضة لا اثر « للبربرية » فيها . وأكثر الاسر البربرية التي اسست هذه الدول والامارات ، قد ادّعت لنفسها العروبة وادعت ان نسبها يتصل بآل البيت . فبنو عبد الواد ، وبنو زيّان ، وبنو مرين ، والموحدون كلهم قد ادعوا انهم عرب ، وانهم من السلالة الهاشمية . أما محمد بن تومرت البربري فلم يكتف بادعاء العروبة وبالانتساب الى آل البيت النبوي الكريم ، بل زعم انهُ هو « المهدي المنتظر » . والّفوا كتباً كثيرة في اثبات « شرف » هذه الاسرة البربرية مثل « قلائد العقيان في شرف بني زيّان » وغيره . وهذا ان لم يدلّ على ان هذه الاسر البربرية هي من السلالة الهاشمية فهو يدل على منزلة البربر في العروبة وعلى مكانة العروبة في انفسهم . وأنا لا استبعد ان يكون هؤلاء عرباً ، ولا ان يكونوا « هاشميين »

ولو ان ابن خلدون نظر الى اللغة البربرية لكان له رأي آخر في اصل البربر ، واذن لوجد فيها ما يدله على عروبة البربر ، او ما يدله في الاقل على اصلهم السامي . فهذه اللغة البربرية هي عربية لا في الفاظها ومفرداتها فقط ، بل ايضاً من حيث تراكيبها وحروف المعاني فيها . ولا تزال تلازمها بعض خصائص اللغة السامية الاولى ، فضمير الغائب فيها مثلاً هو حرف السين فهم يقولون « كتابسْ » اي كتابه او كتابها ، ويقولون « مَعَسْ » اي معه او معها ونحو ذلك . وحرف العين لا يوجد في كلمة بربرية ، وكل كلمة فيها عين فهي عربية « مبربرة » او ان هذا الحرف لا يوجد في كلمة بربرية الاّ في النادر القليل . ولقد قالوا ان اللغة السامية الاولى يعبّر فيها عن ضمير الغائب بحرف السين ، وانها لا « عين » في كلمة من كلماتها . ومخارج الحروف في البربرية هي عربية خالصة حتى انك لا تجد فيها حرفاً غير عربي . ومن العجب ان هذه اللغة هي ذات ضاد كالضاد العربية تماماً . فالفعل المضارع المسند الى المخاطب يختم فيها دائماً بحرف ينطقهُ كثير من البربر ضاداً عربية فصيحة . وهنالك اسماء بربرية فيها هذه الضاد ، منها : « آضيلْ » : العنب . « آحبّوض » : التمر في لغة « تيحبّوض » : البطن في لغة اخرى . « آفرضالْ » : المعظم او الكبير . « آمتشيض » : التين . « إيضارنْ » : الارجل او الاقدام . قال الشيخ : وادليت الى الضابط بالنتائج التي كنت انتهيت اليها في هذا الموضوع بعد الدراسة المستفيضة والاستقراء الشاقّ الطويل ، وهي ان هذه البربرية ليست لغة مستقلة بنفسها ، وانما هي عربية في اصلها ، قد تحرفت بطول الزمن حتى اصبحت اكثر بعداً عن العربية الفصيحة من هذه اللهجات العامية المختلفة التي تتكلمها الشعوب الناطقة بالضاد . ويجوز مع ذلك ان تكون العربية قد غزت البربرية وامعنت فيها حتى نسفت كيانها وافقدتها كل الخصائص والمميزات

ثم قال الشيخ : وما كنت اظن ان هذا الضابط الفرنسي سيعلن في احد المؤتمرات هذه المعلومات ويقرّر انّ هذه البربرية انما هي عربية من غير ان يشير بكلمة واحدة الى انهُ اخذ ذلك كله عن هذا الشيخ العربي . وهنا قام الشيخ غضبان أسفاً ، ثم ودّعنا ومضى

وهران (الجزائر)